

الأسس الفلسفية للعنصرية الغربية

مضاوي بنت سليمان البسام⁽¹⁾

جامعة الملك سعود

(قدم للنشر في 20/04/1444هـ؛ وقبل للنشر في 11/06/1444هـ)

المستخلص: موضوع البحث الأسس الفلسفية للعنصرية الغربية، ويهدف البحث إلى بيان نشأة العنصرية في الفكر الغربي، وبيان الأسس الفلسفية الغربية للعنصرية، وبيان النزعة العنصرية لدى فلاسفة الفلسفة الحديثة، وبيان العلاقة بين عنصرية الفلسفة الغربية والأفكار الإلحادية. أما منهج البحث فهو الاستقرائي التحليلي الاستنباطي. ونتائج البحث: العنصرية نظرية فكرية عانت منها البشرية، ظهرت كنسق فكري مفاهيمي في الفكر الغربي موعلة في القدم والمعاصرة في الفلسفة اليونانية والرومانية والفلسفة الحديثة والمعاصرة، وقد اشتدت العنصرية وقوي بأسها في حقبة الفلسفة الحديثة، لكثرة النظريات الفلسفية المتضمنة لأسس العنصرية، وتم استقراؤها في هذه الدراسة لتنظم بالأسس الفلسفية التالية: فلسفة الذات والأنا: والتي تضع الذات قبل الموضوع، والأنا قبل العالم، وكل «أنا» هو عدو يريد أن يكون المستبد بكل الآخرين، وفلسفة القوة: تحدد قيمة الإنسان في قوته وقسوته، وتعلن أخلاق السادة وهي القوة، وأخلاق العبيد وهي الرحمة والشفقة، وفلسفة الحق الطبيعي: وهي حق الفرد في إشباع أي رغبة يريدها، لامتلاكه الحقوق الطبيعية (حق البقاء، حق الوسيلة، حق الاستحواذ)، فلسفة الروح: وفيها كفاح الروح عبر التاريخ من أجل امتلاك الوعي بالحرية، حتى وصلت لتاريخ الروح الأوربية، فلسفة البقاء للأصلح: التطور هو العملية التي تخلق القيمة والصراع من أجل البقاء أمر حتمي، والتطور هو من وضع كل إنسان منذ مولده في وضع اجتماعي وظيفي محدد، بما قد يجمله من تناقض وعدم مساواة، فلسفة الإنسان الأعلى: موت الإله ليحل محله الإنسان الأعلى الذي يجب أن يتخلص من الآخرين بلا رحمة أو شفقة. وهناك توصيتان رئيسيتان لهذا البحث هما: المقارنة بين المذهب العقلي والتجريبي في تأسيس العنصرية فلسفياً، وأثر الأسس الفلسفية للعنصرية الغربية في خطاب الكراهية المعاصر.

الكلمات المفتاحية: العنصرية، الفلسفة الحديثة، أسس فلسفية.

Philosophical Foundations of Western Racism

Modawee Soliman Albassam⁽¹⁾

King Saud University

(Received 14/11/2022; accepted 04/01/2023)

Abstract: Research Title: Philosophical Foundations of Western Racism. The research is intended to the emergence of racism in Western thought, the Western philosophical foundations of racism, the racist tendency of philosophers of modern philosophy, and the relationship between racism of Western philosophy and atheistic ideas. Research methodology: inductive and analytical. Research results: Racism is an ideological theory suffered by humanity, it emerged as ideology system in Western thought, deep in ancient and contemporary in Greek and Roman philosophy, modern and contemporary philosophy, racism has intensified in the era of recent philosophy, due to the abundance of philosophical theories that include the foundations of racism, and it was extrapolated in this study to be organized with the following philosophical foundations: Philosophy of the Self and Ego: which imposes the self before the subject, and the ego before the world, and each «I» is an enemy, wants to be the tyrant of all others, and the power philosophy: It determines the value of humanity in his strength and cruelty, and declares the masters ethics, which is power, and the slave morality, which are mercy and compassion, and the philosophy of natural right: It is the right of the individual to satisfy any desire he wants, because he possesses natural rights (the right to survival, means, acquisition), the philosophy of the soul: in which the struggle of the soul throughout history to possess the awareness of freedom, until it reached the history of the European soul, the philosophy of survival of the fittest: evolution is the process that creates value, and the struggle for survival is inevitable, and evolution is what every human being has put since his birth in a specific socio-functional situation, with its contradiction and inequality, is the philosophy of the Supreme Man: the death of God to be replaced by the Supreme Man who must get rid of others without mercy or pity. There are two major recommendations for this research: Comparison of mental and experimental doctrine in philosophical racism. The effect of the philosophical foundations of Western racism on contemporary hate speech.

Keywords: racism, modern philosophy, philosophical foundations.

(1) Associated professor, Islamic studies department, College of education, King Saud University.

(1) أستاذ مشارك بكلية التربية قسم الدراسات الإسلامية، جامعة الملك سعود.

البريد الإلكتروني: e-mail:mbassam@ksu.edu.sa

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ. أما بعد:

فلقد عرف التاريخ عموماً وتاريخ الفكر الفلسفي الغربي خصوصاً أزمة حضارية تكمن في عنصرية مقبولة، من قبل عهد أرسطو وأفلاطون وعبر ما مر من ألوف السنين بعدهما، فعلى امتداد أكثر من خمسة آلاف سنة، أي منذ بدأ تدوين التاريخ الغربي لم يخلو عصر من تلك العصور من وجود فلاسفة يسوغون لتلك العنصرية بأسس يزعمون أنها فكرية عقلانية ترجع إلى التمييز بين الناس على أساس مواصفاتهم الجسدية الخلقية وعلى حسب مواقعهم الجغرافية، ورغم وجود الرق منذ آلاف السنين إلا أن الرق الذي أوجده الأوروبيون من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر لم يكن إلا نتيجة منطقية للأفكار العنصرية التي كانت قد نشأت في حوض الفلسفة الحديثة، ومن العجيب أن ينادي هؤلاء الفلاسفة، خاصة في هذه الحقبة (الفلسفة الحديثة) بالإخاء والعدالة والمساواة، بل وينعتون عصرهم بالتنوير، وهم من وضع لبنات وأسس هذه العنصرية المقبولة، حتى قال الفيلسوف الفرنسي

مونتسكيو مسوغاً الاستعمار واستعباد البشر بحسب المناخ والتضاريس والأجناس: إن لنا حقاً مكتسباً في اتخاذ الزوج عبيداً، وأن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يعد أمامها إلا أن تستعبد شعوب إفريقيا لكي تستخدمها في استغلال هذه الأقطار الفسيحة، فما هذه الشعوب إلا عناصر سوداء البشرية من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ولا يمكن أن الله يضع روحاً طيبة في مثل هذا الجسم الخالك السواد⁽¹⁾، وهذا هو واقع العالم المعاصر، والذي تعددت فيه أشكال العنصرية، إلا أن السيد هو هو، إذ ما زال الغربيون وحدانيين يتحدثون عن حقوق الإنسان الغربي وينفون حق غيرهم بالحياة، ويرفعون شعار العدالة ويخفون تحته مطرقة العبودية، ولقد اعتنت كثير من الدراسات برصد تلك المواقف الفلسفية العنصرية من خلال إبراز الجانب النظري بالتركيز على أقوال الفلاسفة المتعلقة بالناحية البيولوجية (الصفات الخلقية)، وفي الحقيقة أن تلك العنصرية لم تكن لولا وجود أسس فلسفية نضحت بها تلك الفلسفات وكانت وقود تلك الشعلة المدمرة للبشرية، وهو الجانب الذي لم أجده في أي دراسة تناولت العنصرية - رغم كثرتها - ولا شك أن ذلك يتطلب اطلاعاً واسعاً على موضوعات فلسفية متنوعة،

(1) ينظر: روح القوانين، مونتسكيو، (14/1) وما بعدها.

أهداف البحث:

- 1- بيان العنصرية في الفكر الغربي.
- 2- بيان الأسس الفلسفية الغربية للعنصرية.
- 3- الكشف عن دور الفلسفة الغربية في تمكين العنصرية.
- 4- بيان النزعة العنصرية لدى فلاسفة الفلسفة الحديثة.
- 5- بيان العلاقة بين عنصرية الفلسفة الغربية

والأفكار الإلحادية.

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي التحليلي الاستنباطي.

الدراسات السابقة:

تنوعت الدراسات حول العنصرية الغربية ما بين دراسة علمية، وكتب، ومقالات، وبحسب ما اطلعت عليه - من خلال المراكز البحثية، والمكتبات الجامعية، والمنظومات الإلكترونية، تبين لي أنه ليس من بينها إطلاقاً من تعرض لدراسة الأسس الفلسفية التي تقوم عليه العنصرية الغربية، وهو محور هذه الدراسة.

إجراءات البحث:

- 1- استقراء ما كتبه مفكرو الفلسفة الغربية الحديثة من نظريات فلسفية، واستخراج ما له علاقة بموضوع البحث.
- 2- تحليل النظريات الفلسفية وبيان منطلقاتها

وأن يعرف الباحث ما تتضمنه فلسفة كل فيلسوف من مبادئ ومفاهيم، مع ضرورة الإلمام بمجالات علمية مختلفة، كالبيولوجيا وعلم النفس والأنثروبولوجيا وغيرها، وهذا مما ارتكزت عليه هذه الدراسة، والتي نحسب - بإذن الله تعالى - أنها إضافة مهمة في حقل الدراسات الفلسفية والحضارة الغربية ليكون موضوع الدراسة هو: الأسس الفلسفية للعنصرية الغربية.

مشكلة البحث:

تعد العنصرية من أهم الأسباب التي تؤدي إلى حدوث النزاعات والحروب بين البشر، والأنكى من ذلك وجود من ابتكر لتطبيقها نظريات فلسفية ليسوغ لمن يمارسها الظلم والاستعلاء، ثم يدعي هؤلاء المنظرون - أو يدعى لهم - أن ما يقولون به له في الفكر موضعاً، وفي عالم القيم منزلة، وتأتي هذه الدراسة لكشف تلك الأسس الفلسفية الداعمة للعنصرية الغربية.

حدود البحث:

ستكون حدود الدراسة في الفلسفة الغربية الحديثة بداية من رينيه ديكارت (1596م) وحتى وفاة جورج هيجل (1831م) أي من نهاية القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلاديين، وذلك لما شهدته تلك الفترة من نظريات فلسفية أثرت في تشكيل منظومات فكرية، ومنها العنصرية.

ومآلاتها العنصرية.

♦ المطلب الأول: فلسفة القوة.

3- استنباط الأسس الفلسفية العنصرية من كل

♦ المطلب الثاني: فلسفة الحق الطبيعي.

نظرية فلسفية، وتصنيف الفلاسفة تحت كل أساس

♦ المطلب الثالث: فلسفة البقاء للأصلح.

بحسب أقواله ومرتكزاته.

* الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

4- توثيق المادة العلمية من مصادرها الأصلية.

5- وضع فهرس للمراجع.

التمهيد

خطة البحث:

العنصرية الغربية المفهوم والنشأة

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين،

أولاً: تعريف العنصرية:

وخاتمة.

العنصرية في اللغة:

* المقدمة: وتشتمل على التعريف بمشكلة البحث،

قال ابن منظور: «العُنْصُر: الأصل.

وحُدوده، وأهدافه، ومنهجه وإجراءاته،

يقال: هو لئيم العنصر، والعنصر الأصل».

والدراسات السابقة، وخطة البحث.

قال الأزهري: «العنصر أصل الحسب»⁽²⁾.

* التمهيد: العنصرية الغربية المفهوم والنشأة.

وفي تاج العروس: العنصر: الأصل والحسب⁽³⁾.

♦ أولاً: التعريف بالعنصرية.

وقيل العنصرية: تعصب المرء أو الجماعة

♦ ثانياً: نشأة العنصرية في الفكر الغربي.

للجنس⁽⁴⁾.

* المبحث الأول: الأسس الفلسفية الداعية إلى

العنصرية في الاصطلاح:

العنصرية الغربية بذاتها، وفيه ثلاثة مطالب:

تعرف الموسوعة البريطانية مصطلح العنصرية بأنها:

«هي النظرية أو الفكرة القائلة بأن هناك علاقة سببية بين

♦ المطلب الأول: فلسفة الأنا (الذات).

الصفات الجسدية الموروثة، وبين صفات معينة تتعلق

♦ المطلب الثاني: فلسفة الروح.

بالشخصية، أو العقل أو الثقافة، يضاف إلى فكرة أن بعض

♦ المطلب الثالث: فلسفة الأبرمنش (الإنسان

الأعلى).

(2) لسان العرب، ابن منظور، (4/ 611).

(3) تاج العروس، الفيروزآبادي، (3/ 407).

(4) ينظر: المعجم الوسيط، مادة (العنصر).

* المبحث الثاني: الأسس الفلسفية التي وُظفت لخدمة

العنصرية الغربية، وفيه ثلاثة مطالب:

الحدائث الغربية، ولا سياقاً خارج نص الفكر المادي الغربي، بل هي نسق مفاهيمي من صلب الفكر العلماني. ومما لا شك فيه أن للعنصرية الغربية جذوراً موعلة في القدم، يبدو ذلك جلياً في الجانب الفلسفي اليوناني، بشقه الاجتماعي القائم على القول المأثور لدى الإغريق: الإغريقيون لا يمكنهم استيعاب أن هناك حياة بلا عبيد، وشقه السياسي روما القديمة وحجم عبيدها، ثم الجانب الكنسي والتأصيل الديني للعنصرية.

أما من حيث التأسيس الفلسفي - وهو محور هذه الدراسة -⁽⁹⁾ فقد بدت العنصرية اليونانية فلسفياً من خلال ما قدمه الفيلسوفان: أفلاطون وأرسطو بما يتعلق بالنفس والعقل، فأفلاطون يقسم الناس إلى صنفين: يونان عاقلين، وبرابرة متوحشين، وكل شخص غير يوناني ولا يتكلم اللغة اليونانية يُعد بربرياً متوحشاً، وهو جدير بأن يكون عبداً لليوناني⁽¹⁰⁾.

وتقوم فلسفة أفلاطون على أساس التمايز العقلي، وأن الطبيعة قد وهبت الإنسان اليوناني العقل والذكاء، وأما العبيد والأرقاء فقد زودوا بقوة الجسم، ويعتبر

(9) التمييز العنصري نشأ من عدة منطلقات منها: (الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي)، وهذه المنطلقات قد استوعبتها دراسات عدة، ولذا سيكون الطرح في جميع مباحث هذه الدراسة ومنها هذا التمهيد هو من ناحية التأسيس الفلسفي، وهو ما لم أجده في أي دراسة - بحسب ما اطلعت عليه -

(10) ينظر: الجمهورية، أفلاطون، (ص 170).

الأعراق متفوقة على أعراق أخرى بصورة وراثية⁽⁵⁾.

وبتعريف آخر هي: الإيمان بوجود تمايز ثقافي بين الأجناس، بأن هذا التمايز له أساس مادي (بيولوجي - بيئي، وراثي)، ثم الانتصار للجنس الذي ينتمي إليه الفرد أو المجتمع باعتباره جنساً متفوقاً، تمنح له حقوق ومزايا ومكانة لا تمنح للأجناس الأخرى⁽⁶⁾.

وفي تعريف هيئة الأمم المتحدة: «أي سلوك يقوم على التمييز المعتمد على خلفيات للفئات الطبيعية أو الاجتماعية، وكذلك كل سلوك لا علاقة له بقدرات الفرد أو كفاءته، أو السلوك الملموس الذي يقوم به الشخص»⁽⁷⁾.

ويمكن تعريف العنصرية الغربية بأنها: الفكرة القائمة على اعتبار الجنس الغربي متفوقاً على الأعراق الأخرى، من الناحية البيولوجية والمادية والوراثية.

ثانياً: نشأة العنصرية في الفكر الغربي⁽⁸⁾:

العنصرية ليست أحداثاً طارئة على منظومة

(5) الموسوعة البريطانية، (15/360).

(6) ينظر: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري، (ص 25-28).

(7) الأمم المتحدة وحقوق الإنسان، مكتب الإعلام في الأمم المتحدة، (ص 62).

(8) تبدأ الفلسفة الغربية الحديثة من الفيلسوف رينيه ديكارت (1596م) وحتى وفاة جورج هيغل (1831م) أي من نهاية القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلاديين، ويلها الفلسفة المعاصرة وتبدأ من وفاة هيغل حتى الوقت الحاضر، والمقصود في هذا البحث الفلسفة الحديثة.

بهما، بحكم خصائصهما الطبيعية»⁽¹³⁾.
أما أرسطو فكان يرى أن الرق ضروري، وأن الطبيعة منحت اليوناني العقل والمنطق، ومنحت غيره القوة البدنية ليقوم بالعمل ويتيح للعقل أن يتفرغ للسياسة، وقسم البشر إلى صنفين: صنف يتميز بعقله وذكائه، وهم اليونان، وصنف يتميز بقوة جسمه، وهم عنده البرابرة، وبهذا يرر أرسطو الرق ويجعل من حق الإنسان اليوناني أن يمتلك إنساناً ضعيفاً ليكون الآلة المسخرة للإنتاج، ويرى أن هذا التقسيم من صنع الطبيعة التي جعلت العبيد من الأدوات المهمة لتحقيق سعادة الأسرة اليونانية⁽¹⁴⁾.

وأرسطو يرى أن العبد مسلوب الإرادة يقول: «... ومع ذلك فالعناصر الأصلية للروح موجودة في جميع هذه الكائنات، لكنها فيها على درجات مختلفة جداً، فالعبد مجرد على الإطلاق من الإرادة، والمرأة لها إرادة لكن في درجة أدنى، والولد ليس له إلا إرادة ناقصة»⁽¹⁵⁾.
وكان يحذر من مخالطة العبيد للأطفال اليونانيين فيقول: «... ومن العناية أن يراقب مفتشو الأطفال... اختلاط الأطفال بالعبيد أقل ما يمكن؛ لأن الأطفال يقيمون بالضرورة في بيت أبيهم إلى السابعة من

الحرية والرق ظاهرتين طبيعيتين ويجعل الفاصل بينهما العقل، فمن وهبته الطبيعة عقلاً ممتازاً كاليوناني فهو حر بطبيعته، وهو الخلق وحده بأن يطاع»⁽¹¹⁾.

وفي مبحث النفس يقسم أفلاطون نفس الإنسان إلى ثلاث قوى هي: قوة العقل، يقابلها في الدولة طبقة الحكام، والقوة الغضبية يقابلها المنفذون أو المحاربون، وقوة الشهوة، يقابلها المنتجون⁽¹²⁾.

«والطبقة التي لها الرياسة في المجتمع هي طبقة الحكماء والفلاسفة، لأنها تمثل الحكمة والعقل، ورياستها إنما هي لضمان التوجه السليم في الدولة، إذ توجيهها فوق التأثير بالانفعالات، والقوة الغضبية في خصائصها وفوق التأثير كذلك بالشهوة والقوة الشهوية في خصائصها، والطبقة المقاتلة، أو المدافعة هي طبقة المحاربين، أو طبقة الجيش وهي تتلقى الأوامر بالدفاع والحماية من تلك التي تعلوها، وهي طبقة الفلاسفة نظراً لحكمتها وبعد نظرها في التدبير، أما الطبقة الدنيا في المنزلة والعمل معاً، فهي طبقة العبيد والخدم، فقيمتها لا فيما تبديه من رأي في التوجيه، ولا فيما تقاوت وتحارب من أجل الوطن والمجتمع؛ لأنها لا تستطيع أياً من المهنتين، ولكن فيما تقوم به من خدمات منزلية وخارجية... هذا العمل الذي يمكن الطبقتين الأخرين من أداء ما أنيط

(13) المرجع السابق، (ص 170).

(14) السياسة، أرسطو، (ص 95).

(15) المرجع السابق، (ص 129).

(11) ينظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، (2/ 68).

(12) ينظر: الجمهورية، أفلاطون، (ص 170).

وهذا الدافع هو الذي جعله يهدف إلى تحصيل أكبر قدر من اللذات، وتجنب أكبر قدر من الآلام، وما مشاركته لأبناء جنسه في بعض جوانب الحياة إلا أنانية مقنعة للحصول على عبوديتهم لكسب أكبر قدر من اللذات⁽¹⁹⁾. أما الرواقية كفلسفة فهي ترى أن السعادة تنحصر في الاكتفاء بالذات، ووظيفة الإنسان أن يستكشف في نفسه العقل الطبيعي وأن يترجم عنه بأفعاله، أي أن يحيا وفق الطبيعة والعقل، فالذات والعقل المستمدان من الطبيعة هما المشرعان لهذا الإنسان الذي يبحث عن السعادة واللذة والوجود كيفما كانت⁽²⁰⁾.

ومن الأفكار العنصرية للمذهب الرواقي والأبيقوري أنه لكي يحصل الإنسان على الحرية الحقة عليه أن يكون عبداً للفلسفة⁽²¹⁾.

ومما جاء في مذهبهم: «وأما عن الحياة العامة، فقد يكون من واجبك أن تأخذ بنصيب فيها، ما دامت تتيح الفرص للعدالة والاحتمال، وما إليها من فضائل، لكنه لا يجوز لك أن تندفع بالرغبة في إفادة الإنسانية، لأن الفوائد التي في استطاعتك أن تفيضها على الناس، مثل الحياة الآمنة والزيادة من القوت، ليست بالفوائد

(19) ينظر: بيقور الرسائل والحكم، جلال الدين السعيد، (ص111).

(20) ينظر: الفلسفة الرواقية، عثمان أمين، (ص15).

(21) ينظر: تاريخ العالم، سير جون، (ص598).

عمرهم⁽¹⁶⁾.

ويرى أن العبد حيوان أعدته الطبيعة ليعيش المجتمع به، وأنه مثل الحيوان في قضاء حاجات الحياة المعيشية فيقول: «على أن منفعة الحيوانات المستأنسة، ومنفعة العبيد كأنها شيء واحد تقريباً. فإن الأولى والآخرين يساعدوننا بقواهم المادية في قضاء حاجات المعيشة⁽¹⁷⁾».

ويرى أن الطبيعة زودت أجسام العبيد بالقوة، وزودت اليوناني بالعقل والحكمة فيقول: «والطبع ذاته يريد ذلك ما دام يجعل أجسام الناس الأحرار مغايرة لأجسام العبيد، إذ يعطي هؤلاء الشدة الضرورية في الأعمال الغليظة.. ويخلق على ضد ذلك أجسام أولئك. غير صالحة لأن تحني قوامها المستقيم لتلك الأشغال الشاقة، بل يعدهم لوظائف الحياة المدنية فحسب، تلك الحياة التي تتنازعها فيهم مشاغل الحرب ومشاغل السلام⁽¹⁸⁾».

وبعد ذلك تأتي الأبيقورية كمؤسس فلسفي آخر للعنصرية الغربية من خلال نزعتها الذاتية، وتقديس اللذات، واعتبار جميع دوافع الإنسان موجهة نحو حفظ الحياة وحب الذات، فالإنسان في طبعه أناني وشرير،

(16) السياسة، أرسطو، (ص292).

(17) المرجع السابق، (ص102).

(18) المرجع السابق، (ص102).

من مجرد منهج يطبقه الديكارتيون إلى روح الحياة الغربية، فكل وجود غير وجود «الأنا» هو «آخر» بالنسبة لها، وبالتالي فعلاقة التغير هي علاقة بين الأنا والآخر ابتداءً، سواء أكان هذا الآخر هو الشيطان الذي افترض ديكارت أنه قد يكون ضلله فصار يشك في كل شيء، أو كان هو الإله الذي اطمأن إليه أخيراً باعتبار أن الله لا يمكن أن يضلله، ومن ثم جعله ضامناً ليقينه ذلك، أو كان شيئاً من الأشياء المادية المحسوسة التي يتوقف وجودها على يقينه⁽²⁵⁾، فالشبكة التي يرى العقل الأوربي العالم من خلالها وبواسطتها شبكة تهيمن فيها علاقة أساسية هي علاقة «الأنا» بـ«الآخر»، لا علاقة «آخر» بـ«آخر»، أي علاقة فوقية بدونية، لا علاقة ندية بندية⁽²⁶⁾.
إذاً فمفهوم «الأنا» مبني على السيطرة، سيطرة الذات على ما تتخذه موضوعاً لها، سواء أكان هذا الموضوع أشياء الطبيعة أو أناساً آخرين، فمن يهدد مصلحتي هو الآخر، وهذا هو ما يعرف به معجم لاند الفلسفي «الأنا» بقوله: «وعي فردي، بوصفه منشغلاً بمصالحه ومنحازاً لذاته» ويستشهد لاند بعبارته للفيلسوف بليز باسكال، يقول: «للأنا صفتان: فمن جهة هو ظالم بذاته، من حيث إنه يجعل نفسه ضد الكل، وهو متنافر مع الآخرين من حيث إنه يريد استعبادهم،

(25) ينظر: المرجع السابق، (ص 155) وما بعدها.

(26) ينظر: العولة، ناهد تلاس، (ص 25).

الحقيقية، وعلى كل حال فليس يهيك أنت سوى فضيلة نفسك»⁽²²⁾.
وهكذا تتحد تلك الفلسفات في اعتبار الذات والأنا المحور الأساس، واستعباد الآخر ضمن فلسفة العقل والنفس، ليتم توسيع تلك المدلولات في الفلسفة الحديثة إلى أبعاد مختلفة بتقديمها تبريراً أيديولوجياً للحركات الاستعمارية التي تزامنت معها. وترسيخ الفوقية العرقية للإنسان الأبيض من خلال أسس فلسفية مكتملة لما سبقها، وهو مضمون المباحث التالية.

المبحث الأول

الأسس الفلسفية الداعية إلى العنصرية الغربية بذاتها

المطلب الأول: فلسفة الذات «الأنا».

من أهم أسس تشكيل العنصرية الغربية فلسفة الذات، ويعتبر الكوجيتو⁽²³⁾ الديكارتي والذي يضع الذات قبل الموضوع، والأنا قبل العالم، وقاعدته: «أنا أفكر أنا موجود»⁽²⁴⁾. هي القاعدة التي اتكأت عليها العقلية الغربية، ومنها انطلقت حتى تحولت الديكارتية

(22) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، (ص 406).

(23) الكوجيتو: لفظ لاتيني معناه (أفكر) وهو المبدأ الذي انطلق منه ديكارت لإثبات الحقائق بالبرهان، ينظر: مقال عن المنهج،

رينيه ديكارت، (ص 140) وما بعدها.

(24) ينظر: مقال عن المنهج، رينيه ديكارت، (ص 149).

الآلهة، فلم يعد لنا من أمل إلا ظهور الإنسان المتفوق، فلتكن هذه إرادتنا عندما تبلغ الشمس الهاجرة»⁽³²⁾.

إذن أعلن نيشته موت الإله ليحل محله الإنسان الأعلى، «في الإنسان الأعلى اتحد المخلوق والخالق في الإنسان خامه وزوائد، وطين ووحل وسخف، لكن في الإنسان أيضاً خالق وصانع قوة، وألوهة متفرجة»⁽³³⁾.

ولهذا يقرر نيشته: «لو كان هناك أرباباً أكنت أحتمل ألا أكون رباً؟ إذن ليس في الكون أرباباً، لقد استخرجت لذاتي هذه النتيجة وها هي تستخرجني الآن»⁽³⁴⁾.

ولأن الإنسان الأعلى هو الإله فهو من يخلق القوانين ويسن الشرائع، ويفرضها على نفسه، يقول: «لقد أقام الناس الخير والشر لأنفسهم، وما اكتشفوهما، ولا أنزل عليهم بهاتف من السماء»⁽³⁵⁾.

فالخير والشر قيم نسبية ومتغيرة لأنها من صنع الإنسان، يقول: «ليس على الأرض من شعب تحلوه الحياة دون أن تخضع النظم والسنن لتقديره، وإن كل شعب يرى من واجبه، إذا أراد الحياة أن يجيء بتقدير يختلف عن تقدير من يجاوره من الشعوب، وهكذا كان

وذلك لأن كل «أنا» هو عدو، ويريد أن يكون المستبد بكل الآخرين»⁽²⁷⁾.

وهذه هي العنصرية التي لا ترحم، إذ لا بد أن يكون هناك آخر، فليس هناك سيد بلا عبد، ولا سلطة اقتصادية وسياسية بلا استغلال، ولا طبقة سائدة دون فاشية ترزح تحت النير⁽²⁸⁾، وهو ما أسماه «فوكو» بالقدر التاريخي المتعالي، الذي خص به الغرب»⁽²⁹⁾.

المطلب الثاني: فلسفة الأبرمنش⁽³⁰⁾ (الإنسان الأعلى - الإنسان المتفوق):

يقول نيشته: «إنني أت إليكم بمبدأ الإنسان المتفوق، فما الإنسان العادي إلا كائن يجب أن نفوقه، فما أعددتكم للتفوق عليه؟»⁽³¹⁾.

تلك هي أهم مبادئ نيشته الفلسفية، والتي كررها في أكثر من موضع من كتاباته ليؤكد أهمية إنسانه المتفوق أو سوبرمانه الجديد، يقول: «لقد ماتت جميع

(27) موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، (2/842).

(28) ينظر: أساطير بيضاء، روبرت يانغ، (ص57).

(29) ينظر: الإنثربولوجيا والاستعمار، جيرار لكرارك، (ص11).

(30) الأبرمنش: هو نموذج الإنسان الأعلى المخرج من العدمية الذي يرد الاعتبار لقيمة الحياة ويسيطر عليها، والذي بشر نيشته بقدمه على لسان إنسانه المتفوق زرادشت بعد حوار مع الناسك في الغابة، ينظر: هكذا تكلم زرادشت، نيشته، (ص33) وما بعدها.

(31) هكذا تكلم زرادشت، نيشته، (ص33).

(32) المرجع السابق، (ص106).

(33) ما وراء الخير والشر، نيشته، (ص27).

(34) هكذا تكلم زرادشت، نيشته، (ص102).

(35) المرجع السابق، (ص34).

السادة، ويوضح نيتشه في كتابه «إرادة القوة» أنه: «يجب أن يتخلص الإنسان الأعلى من الآخرين... أو وجد المسافة ولكن لا تخلق الأضداد، اقض على الأشكال المتوسطة، وقلل من تأثيرها»⁽³⁸⁾، «يجب التفوق على البشرية بالعزم وبتشدد النفس وبالاحتقار»⁽³⁹⁾. إنها الحرب مع الآخر للتخلص من الآخر الضعيف، والذي يصفه بأقبح الأوصاف وأحط التشبيهات فيقول: «وستصغر الأرض في ذلك الزمان فيطنو على سطحها الرجل الأخير الذي يحول إلى الحضارة كل ما يدور به، إن سلالة هذا الرجل لا تباد، فهي أشبه بالبراغيث»⁽⁴⁰⁾. وإمعاناً في العنصرية يقرر نيتشه أن الإنسان الأعلى متحرر من قيم الشفقة والتعاطف، وأنه لا يسعى إلا لتحقيق ذاته بغض النظر عن الآخرين، فالإنسان الأعلى يسعف البائس، ولكن نادراً ما يكون ذلك بدافع الرحمة، بل بالأحرى باندفاع يتولد من فيض السلطان وبكرم الإنسان النبيل، في نفس صاحب السلطان والمالك سلطة على نفسه، والعارف كيف يتكلم، وكيف يصمت، والصارم على نفسه والقاسي عليها بلذة⁽⁴¹⁾. وهكذا تبدو فلسفة الأبرمنش العنصرية عند

ما يرى أحدهما خيراً، يراه الآخر دناءة وعاراً... فكم من عمل اتشح بالعيب في بلد، رأته مجللاً بالشرف والفخر في بلد آخر»⁽³⁶⁾.

فليس ثمة خير وشر مستمر؛ لأن على الخير والشر كلهم أن يندفعا أبداً إلى التفوق والاعتلاء... فمن أراد أن يكون مبدعاً سواء أكان في الخير أم الشر، فعليه أن يبدأ بهدم ما سبق تقديره، وبتحطيمه، وهكذا فإن أعظم الشر يبدأ جزءاً من أعظم الخير، ولكن هذا الخير لم يعطه إدراكه إلا للمبدعين⁽³⁷⁾.

ويؤكد نيتشه على أن إنسانه المتفوق هو الذي يؤمن بضرورة هدم الأخلاق التقليدية السائدة لأنها تقتل الإبداع لدى الفرد، وتقضي على التمييز بين البشر، وذلك لأنها تقوم على فكرة الحقوق المتساوية بين البشر، وتغفل قيمة الاختلاف بين الذوات، لذا رفض نيتشه فكرة التعاطف، وأكد على ظهور الأخلاق الجديدة التي تسهل تكوين الإنسان الأعلى، والقيم الجديدة لها طابع مزدوج، بمعنى أنها نمطان مختلفان من القيم الأخلاقية، الأول: قيم تعلي من شأن الحياة، والثاني قيم تنفي الحياة وتخط من مرتبتها.

وقد حاول نيتشه من خلال فلسفته تأسيس أخلاق جديدة هي أخلاق الإنسان الأعلى، أخلاق

(38) إرادة القوة، فريدريك نيتشه، (ص 47).

(39) عدد المسيح، نيتشه، (ص 22).

(40) أفول الأصنام، نيتشه، (ص 97).

(41) ينظر: ما وراء الخير والشر، نيتشه، (ص 258-259).

(36) هكذا تكلم زرادشت، نيتشه، (ص 34).

(37) المرجع السابق، (ص 40).

العنصرية عند هيجل، فالتاريخ عند هيجل هو عملية تقدم الوعي بالحرية، لأن الحرية هي ماهية الروح وحقيقتها الوحيدة، وعبر التاريخ تكافح الروح لكي تعي ذلك وتحققه، على مراحلها المختلفة للأمام والشعوب، «إن التاريخ هو المسرح الذي تشاهد الروح عليه، وهي تكشف عن نفسها في حقيقتها الأكثر عينية، وتقوم بتقديم لطبيعتها الخاصة، بحيث تجعل نفسها بالفعل ما كانت عليه بالقوة، ذلك أن التاريخ هو عرض للروح وهي تعمل على اكتساب المعرفة لما تكونه بالقوة، والروح تنطوي في ذاتها على إمكانيات تقدمها وارتقائها، وعلى ما ستكون عليه أيضاً، شأنها في ذلك شأن البذرة والشجرة، فكما أن البذرة تحمل في جوفها طبيعة الشجرة كلها، وطعم الفاكهة وشكلها كذلك تتضمن البوادر الأولى للروح لتاريخها كله»⁽⁴³⁾.

وكفاح الروح من أجل امتلاك الحرية يمر عبر مراحل تنمو في كل مرحلة درجة من درجات امتلاك الوعي والحرية، وصولاً إلى المرحلة الأخيرة المعبرة عن تقدم التاريخ البشري، وفي هذا السياق يتحدث هيجل عن ثلاث حالات تمثل ثلاث درجات مختلفة للوعي بالحرية عبر التاريخ الكلي، ما يعني ثلاث درجات من وعي الروح بذاته:

نيتشه من خلال إعلان موت الإله ورفض القيم والأخلاق، وتحديد أخلاق السادة والعبيد، وتبشيريه بالإنسان الأعلى المتحرر من قيم الشفقة والتعاطف، الراض لفكرة الحقوق المتساوية بين البشر، ليكون نتاج هذه الفلسفة أبشع مظاهر الديكتاتورية والقوة المتسلطة، من خلال هتلر الذي استخدم فلسفة نيتشه (الأبرمنش) لتبرير الوحشية التي مارسها.

المطلب الثالث: فلسفة الروح:

فلسفة الروح مرتكز فلسفي مؤسس للعنصرية الغربية، إذ يُجمع المتخصصون في تاريخ الفلسفة الحديثة والمعاصرة، وكذلك المؤرخون لها على الدور الكبير الذي لعبته هذه الفلسفة، وما زالت تلعبه في ترسيخ منظومات فكرية، والتي منها العنصرية⁽⁴²⁾، ويظهر ذلك جلياً فيما قدمه «هيجل» في كتابه «فينومينولوجيا الروح» بتحديد طبيعة الروح صعوداً في سلم المراتب من الأدنى إلى الأعلى، حتى تصبح هي والمطلق شيئاً واحداً، ودرس في كتابه «العقل في التاريخ» الخصائص المجردة لطبيعة الروح، والتي هي خصائص للحرية أيضاً، وحدد الوسائل التي تسلكها الروح لكي تحقق فكرتها في الوجود المطلق، وتشكل العناصر الثلاثة «الروح (العقل)، التاريخ، الحرية» دوراً هاماً في فلسفة الروح

(42) ينظر: هيجل أو المثالية المطلقة، زكريا إبراهيم، ومن هيجل إلى نيتشه، كارل لوفيت.

(43) العقل في التاريخ، جورج هيجل، (ص78-79).

غايتها، وعرف الإنسان أنه موضوع نفسه، وأن التعيين الذي يعرفه هو الحرية التي تؤلف ماهية الروح، بما هي وعي بذاتها، ولم تعد حرية الواحد كما هو الحال في العالم الشرقي، ولا حرية البعض المشروطة بوجود العبيد في العالم اليوناني - الروماني، وإنما هي حرية الجميع، حرية الإنسان باعتباره إنساناً، وقد غدا فعل الذات المنتج لتقدم الوعي بالحرية في التاريخ هو فعل الحرية ذاتها، والمبدع للواقع من خلال فعاليات الذات الحرة أيضاً، وقد كانت الأمم الجرمانية تحت تأثير المسيحية هي أول الأمم التي تصل إلى الوعي أن الإنسان بما هو إنسان حر⁽⁴⁷⁾.

ففي ظل المسيحية وفق الرؤية الهيجلية عرفت الروح نفسها بوصفها روحاً إلهية اتخذت لها مقاماً في الفرد، وتجاوزت ثنائية الحقيقة (الدينية - الإنسانية)⁽⁴⁸⁾، وقد تحققت أول مرة في التاريخ وحدة الطبيعتين الإلهية والبشرية في ذات واحدة⁽⁴⁹⁾. إذ بدخول المبدأ المسيحي «غدت الأرض أرضاً للروح، لأن المبدأ قد تحققت وصارت نهاية الأيام كاملة، ذلك أن الإله المسيحي هو أول إله يمثل روحاً حقة وإنساناً في وقت واحد، كما أن الجوهر الروحي يصبح ذاتاً في إنسان تاريخي واحد،

أولها: الأمم الشرقية، وهي تمثل عند هيجل طفولة التاريخ البشري، وهذه الحضارات لم تع الحرية ولم تعرفها، فالشقيون وفقاً لفلسفة الروح عند هيجل: شعوب تشرق الحرية عليها، لكن من دون أن تصبح مبدأً حقيقياً يدخل في مختلف العلاقات السائدة في عالمهم العقلي أو تتخذ حكوماتهم ودساتيرهم تنظيمياً معقولاً، وتتعرف به أساساً لها⁽⁴⁴⁾.

وثانيهما: العالم اليوناني، والذي يشبهه هيجل بطور المراهقة في تاريخ البشرية حيث ظهر الوعي بالحرية لأول مرة عند اليونان، غير أن ذلك لم يكن يعني أن حرية الروح كما هي كذلك قد تحققت، ذلك لأن الفرد تابع للماهوى الكلي والحرية في أثينا كان ينقصها الشرط الداخلي والشرط الأساسي لامتلاك الحرية الذاتية⁽⁴⁵⁾. «فتحرر الروح في العالم اليوناني على الرغم من كونه يمثل نوعاً من فردوس مفقود في عصر ذهبي للإنسانية السعيدة هو لحظة من تاريخ»⁽⁴⁶⁾. لا تعني أبداً أن الروح في هذا العالم قد بلغت وعيها الكامل بذاتها.

وثالثهما: الأمم الجرمانية في العالم الغربي، وبها بلغت مرحلة كفاح الروح من أجل الوعي الذاتي بالحرية

(44) ينظر: محاضرات في تاريخ الفلسفة، جورج هيجل، (ص 173).

(45) ينظر: من هيجل إلى نيتشه، كارل لونييت (1/ 48).

(46) فكر هيجل، روجيه غارودي، (ص 152).

(47) ينظر: محاضرات في تاريخ الفلسفة، جورج هيجل، (ص 62).

(48) ينظر: من هيجل إلى نيتشه، كارل لونييت (1/ 48).

(49) ينظر: فلسفة الروح، ولتر ستيس، (1/ 200).

المبحث الثاني

الأسس الفلسفية التي وُظفت لخدمة العنصرية الغربية
المطلب الأول: فلسفة القوة:

وضع مكيافيل فلسفة القوة سبيلاً لقيام الدولة الحديثة فيقول: «هكذا أثبتت الأيام أن الأنبياء المسلمين قد احتلوا وانتصروا، بينما فشل الأنبياء غير المسلمين... تختلف طبيعة الشعوب، وقد يكون من السهل إقناعها بأمر من الأمور، لكن من العسير جداً إبقاؤها على هذا الإقناع، ولهذا أصبح من الضروري فرض الأمور عليها إذا توقفت عن الامتناع أرغمت عليه بالقوة»⁽⁵²⁾، وفلسفة القوة عند مكيافيل هي «اعتبارات المنفعة التي تستخدم كل الوسائل معتدلة أو مشينة، حديدية أو سامة لتحقيق غاياتها»⁽⁵³⁾.

وتمثل فلسفة القوة ركناً رئيساً في الطرح النيتشوي، وهي من المفاهيم التي ركّز عليها بشكل متواصل عبر مؤلفاته المختلفة، حتى خصص كتاباً كاملاً يحمل عنوان: «إرادة القوة»، وفي كتابه «هكذا تكلم زرادشت» وصف نيتشه إرادة القوة بأنها جوهر الوجود، أو الجوهر الأعمق للوجود إذ يقول: «تساءلت عن علة الأمور وعبر القوة التي ترغم الحي على الانقياد والتحكم فتجعله خاضعاً حتى إذا حكم، ولعلني

وبذلك وصلت الروح أخيراً إلى الوعي باذتها، وتكشفت وحدة الإلهي مع الإنسان عن تصالح الإنسان مع الله بوصفه صورته، وليغدو هذا المبدأ مع ما يحمل ذلك، هو محور العالم الذي يدور حوله»⁽⁵⁰⁾.

فالعالم الغربي فقط هو من بلغ تقدم الوعي بالحرية، على النحو الذي أرادته الرؤية الهيكلية.

لقد أراد التصور الهيكلية لمسار تقدم الوعي بالحرية منذ البدء الوصول إلى تلك النتيجة، وحدد مراحل السير وكيفياته وصولاً إلى القول: «فعلى العتبة الأخيرة لتاريخ الروح الأوروبية، تنبثق أخيراً الإرادة الحرة المحضة التي تريد ذاتها وتعرف ما تريد، وبذلك يقف الإنسان أول مرة على رأسه»⁽⁵¹⁾.

والخلاصة أن آراء هيغل تعكس نبرة استعلائية مقبنة يميل فيها إلى فرادة النموذج الغربي على حساب التقليل من بقية الشعوب الأخرى، بوصفه - الغربي - صاحب أرقى فكر بين أجناس البشرية وهو التجلي الأعلى للإله أو الروح المطلق، وهي وحدها الجديرة بحكم البشر وتحديد مصيرهم.

(52) الأمير، نيقولو مكيافيل، (ص 82، 83).

(53) المرجع السابق، (ص 123).

(50) من هيغل إلى نيتشه، كارل لوفيت، (ص 46).

(51) ينظر: المرجع السابق، (ص 49).

كان عليها أن تستعبد شعوب أفريقيا، لاستخدامها في استصلاح الأراضي... وهؤلاء العبيد سود من أخص القدمين إلى أعلى الرأس، وأنف الواحد منهم أفطس، وبلغ حداً يعود من المحال علينا أن نشفق عليهم، وليس من الممكن أن نسلم بأن الموجود ذو الحكمة المنيعة، قد أسكن نفساً - ونفساً خيره على الخصوص - في جسد أسود برمته، ومحال أن نظن هؤلاء القوم بشراً⁽⁵⁷⁾.

المطلب الثاني: فلسفة الحق الطبيعي:

يعتبر الفيلسوف توماس هوبز من أبرز مؤسسي نظرية «الحق الطبيعي» والتي عرضها في كتابه «ليفياتان». والحق الطبيعي عند هوبز: هو الحق في تلبية الرغبات وإشباعها.

يقول هوبز: «إن الحق الطبيعي، الذي معناه: حرية كل واحد في العمل بكامل قوته، وكما يحلو له، من أجل الحفاظ على طبيعته الخاصة، وبعبارة أخرى على حياته الخاصة، وبالتالي القيام بكل ما يبدو له، حسب تقديره الخاص وعقله الخاص، أنه أنسب وسيلة لتحقيق هذا الغرض»⁽⁵⁸⁾.

وعند هوبز من الضروري لإشباع أي رغبة وجود أربعة حقوق أساسية يطلق عليها اسم «الحقوق الطبيعية» وهي:

توصلت إلى سبر قلب الحياة إلى الصميم، فأصغوا إلى قولي أيها الحكماء، لقد تيقنت وجود إرادة القوة في كل حي»⁽⁵⁴⁾.

والسبيل الوحيد لتحقيق التطور عند نيشته هو القوة أو التميز بالقوة والقسوة، ورفض القيم والمبادئ السائدة، وإعلان «أخلاق السادة» و«أخلاق العبيد»، مؤسساً بذلك فلسفة عنصرية تدعو للعنف والتسلط، وتحديد قيمة الإنسان في القوة واعتبارها الفضيلة الأسمى.

وهذه القوة يعرفها هنتنغتون بأنها: «القدرة لدى شخص أو مجموعة على تغيير سلوك شخص آخر أو مجموعة، من خلال الإقناع أو الإرغام، أو التحذير»⁽⁵⁵⁾. فلا شيء خارج القوة، ولا أحد خارج نطاقها، فالمعرفة لا تفهم إلا في إطار علاقات القوة وتوزيعها، ومن يتحكم فيها يتحكم في كل شيء، ويعلق نيته على هذه الفلسفة التي صاغها على لسان زرادشت بقوله: «ربما تهلك البشرية من جراء ذلك، فليكن»⁽⁵⁶⁾. فالأصل هلاك العبيد وبقاء السادة، وهؤلاء السادة هم الغربيون الذين لهم الحق في استعباد الشعوب، يقول مونتييسكو: «لما كانت الشعوب الأوروبية قد أبادت شعوب أمريكا، فلقد

(54) هكذا تكلم زرادشت، نيته، (ص142-143).

(55) صدام الحضارات، صموئيل هنتنغتون، (ص171).

(56) كتابات أساسية، مارتن هايدغر، (ص123).

(57) الأنتولوجيا الكونالية، الطاهر ليب، (ص449).

(58) ليفياتان، توماس هوبز، (ص145-146).

الغاية، له الحق في الوسيلة أيضاً⁽⁶¹⁾.
الحق الثالث: بناء على الحقين السابقين (حق
الغاية وحق الوسيلة) يقرر هوبز حقاً ثالثاً هو أن يكون
من حق الإنسان تقرير أنواع الوسائل الضرورية التي
تكفل له تحقيق الغاية وهي المحافظة على بقائه وتقدير
حجم الخطر.

يقول هوبز: «لكل إنسان الحق بالطبيعة في أن
يحكم بنفسه أي أنواع الوسائل تكون ضرورية، وأن
يجيب عن الوسائل: ما هي الوسائل اللازمة لتحقيق
الغاية، ثم ما هو مقدار الخطر الذي يتهده»⁽⁶²⁾.

الحق الرابع: حق الاستحواذ، أو وضع اليد،
فليس من حقك أن تقول: «هذا ملكي»، فمن حق
الإنسان أن يملك أي شيء وكل شيء.

يقول: «لقد منحت الطبيعة كل إنسان الحق في
كل شيء، ولذلك فمن المشروع بالنسبة لكل إنسان أن
يفعل أي شيء يساعده على الاستمرار والبقاء...
ويستتبع ذلك أن يكون من المشروع لكل إنسان في حالة
الطبيعة أن يمتلك كل شيء وأن يفعل أي شيء، وهذا هو
المثل الذي يقول: لقد أعطت الطبيعة الكل للكل»⁽⁶³⁾.

وهذه الحقوق الأربعة ستؤدي لا محالة إلى

الحق الأول: حق البقاء، وهو الحق الذي ينبع منه
كل حق آخر، يقول هوبز: «وليس ثمة قانون، ولا فكرة
معقولة يجبر الإنسان على أن يتخلى عن المحافظة على
حياته، بل إذا حُرِم الإنسان من الطعام، أو من أي مادة
أساسية، أو ضرورية أخرى لحياته، ولم يكن في استطاعته
أن يحافظ على بقائه بطريقة أخرى، إلا إذا أقدم على شيء
يخالف القانون، كما هو الحال في المجاعة الهائلة التي لا
يجد فيها الإنسان ما يسد رمقه، أخذ الطعام بقوة، أو
سرقة، فإذا لم يستطع أن يحمل عليه بالمال أو بالإحسان أو
أن يدافع عن حياته، استل السيف بسرعة من شخص
آخر وهو فعل له ما يبرره تماماً ويتفق مع العقل»⁽⁵⁹⁾.

فهذا الحق هو الأساس الذي يقيم عليه هوبز
فلسفته، ومن ثم كان هذا الحق هو الشرط الضروري
لإشباع أي رغبة.

أما الحق الثاني: فهو أنه من حق أي ذات
استخدام كافة الوسائل الضرورية التي تكفل تحقيق هذه
الغاية: «فكلما كان من حق الإنسان الوصول إلى تحقيق
هذه الغاية، فإن من حقه أيضاً استخدام كافة الوسائل
المناسبة لبلوغ هذه النتيجة»⁽⁶⁰⁾.

وبكل وضوح يصرح هوبز: «من له الحق في

(61) المرجع السابق، (ص 172).

(62) The English Works Of Thomas Hobbes.p83

(63) The English Works Of Thomas Hobbes.p10

(59) ليفياتان، توماس هوبز، (ص 288).

(60) المرجع السابق، (ص 83).

وهكذا تنشأ العنصرية، فكل فرد يريد أن يحافظ على بقاءه، وذلك بإشباع رغباته، وإشباع الرغبات يستلزم البحث عن أسباب القوة، ثم اكتساب القوة إثر القوة، وهذه القوة يصارع كل إنسان كل إنسان آخر ويفرض عليه سيطرته وفوقيته، وليس في ذلك خطأ؛ لأنه لا خطأ ولا صواب، وليس هناك ما يوجب على الفرد أن يلتزم بشيء أو أن يكبح من أهوائه أو يحد من رغباته، وتلك هي الحال التي يتحول فيها كل إنسان إلى ذئب نحو أخيه الإنسان، يتربص به الدوائر، فإذا سنحت له الفرصة أجهز عليه وامتلكه كله واستعبده⁽⁶⁵⁾.

المطلب الثالث: فلسفة البقاء للأصلح «الداروينية الاجتماعية»:

فتحت نظرية التطور بصيغتها الداروينية باباً للعنصرية خاصة بعد أن تحولت إلى نزعة فلسفية على يد بعض الفلاسفة كهربرت سبنسر، والذي ساهم في ترسيخ مفهوم البقاء للأصلح وأعطاه بعداً اجتماعياً فيما عرف لاحقاً بـ«الدارونية الاجتماعية» حيث خلق سبنسر تياراً فلسفياً مهماً قائماً على استلهام البيولوجيا في الحقل الفلسفي، وقام بإعادة صياغة مفاهيم داروين فنقلها من الحقل البيولوجي إلى الحقل الفلسفي الاجتماعي، لتتنظم فلسفياً وفق القواعد الثلاث:

الصراع والقتال، والحرب، وهي ما يصفها هوبز بأنها: «طبيعة للإنسان»⁽⁶⁴⁾، ولا معنى للقول بأن عليه أن يمتنع عن مثل هذه الرغبة أو أن يكف عن هذا الميل؛ لأن معنى ذلك أننا نطالبه بما هو مصاد لطبيعة وجوده ويبرر هوبز كل هذا بقوله: «وقد يعجب البعض ممن لم يحسن النظر إلى الأمور، حين يرانا نقرر أن الطبيعة قد باعدت بين الناس على هذا النحو، أو أنها قد جعلتهم يميلون إلى الاعتداء بعضهم على بعض، أو التحرش بعضهم ببعض، وهو لهذا السبب قد لا يثق في الاستنتاج الذي قمت به من الانفعالات. وربما رغب في أن يتأكد بنفسه من التجربة، دعه إذن يتأمل نفسه، ويلاحظ سلوكه، ألا يحدث، عندما يقوم برحلة أن يسلح نفسه، ويدقق جيداً في رفاق الطريق، وإذا ما أسلم عينيه للنوم ألا يغلق أبوابه؟ وإذا ما استقر في منزله ألا يغلق خزائنه، وهو يفعل ذلك كله مع علمه بأن هناك قوانين تحميه وحراساً عموميين مدججين بالسلاح مهمتهم الانتقام من كل من يريد أن يلحق به أذى. فما هي الفكرة التي كونها في ذهنه عن أقرانه من المواطنين عندما أغلق أبوابه؟ وما هي الفكرة التي كونها عن أطفاله وخدمه عندما أغلق خزائن بيته؟ ألا يتهم هو البشرية بأفعاله تلك وسلوكه هذا على نحو ما فعلت أنا عن طريق الكلمات؟!»⁽⁶⁵⁾.

(64) الليفانان، توماس هوبز، (ص 343).

(65) المرجع السابق، (ص 20).

(66) المرجع السابق، (ص 143).

نحن المحدثين نتحايل لإعاقه المجرى الطبيعي للتطور الخاص بنوعنا، وذلك لأننا نحمي الضعفاء، ونسمح لهم بأن يشبوا وينقلوا ضعفهم إلى نسلهم الذي نحمله أيضاً، من خلال إعانة الفقراء والمستشفيات والأطباء»⁽⁷¹⁾.

ولهذا فقد وصفت آراء سبنسر في (الداروينية الاجتماعية) بأنها: «تبرير لبعض الأنظمة الاجتماعية الأكثر دناءة فيما عرفها الإنسان»⁽⁷²⁾.

ويناقش د. عبد الوهاب المسيري في كتابه (الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان)، هذه الرؤية العنصرية الغربية تجاه الآخر فيقول: «وقد وظفت الداروينية الاجتماعية في تبرير التفاوت بين الطبقات داخل المجتمع الواحد وفي الدفاع عن حق العلمانية المطلقة وفي تبرير المشروع الإمبريالي الغربي على صعيد العالم بأسره، فالفقراء في المجتمعات الغربية وشعوب آسيا (والضعفاء على وجه العموم) هم الذين أثبتوا أن مقدرتهم على البقاء ليست مرتفعة، فهم يستحقون الفناء أو على الأقل الخضوع للأقوياء ولشعوب أوربة الأقوى والأصلح»⁽⁷³⁾.

وهكذا تقترن العنصرية بالإلحاد ليكونا منظومة واحدة لا يفترقان في الفلسفة الحديثة، ابتداءً بفلسفة الأنا

1- الخير والشر والخطأ والصواب أمور نسبية، والتطور هو العملية التي تخلق القيمة بنفسها⁽⁶⁷⁾، فالطبيعة هي من ترينا ما هو الصالح، والخير في اللذة والمنفعة، ومعادلة التطور بالاستمرار الأخلاقي للأصلح هي الحاكم على الشيء بكونه خيراً أو شراً⁽⁶⁸⁾.

2- الصراع من أجل البقاء أمر حتمي، فقتل الإنسان لا يختلف كثيراً عن قتل أي حيوان، وهو ما عبر عنه سبنسر بقوله: «إذا كانوا قابلين للحياة، فيجب أن يعيشوا، وإذا لم يكونوا على مستوى الحياة، فسيموتون وسيكون ذلك هو الأفضل»⁽⁶⁹⁾.

وقد اقترح سبنسر من أجل أن يكون البقاء للأصلح، أن يبقى الضعيف بلا مساعدة، يقول: «أن نساعد الضعيف ليتكاثر يعني أن نضع للذين سيأتون من بعدنا العديد من الأعداء»⁽⁷⁰⁾.

3- الإنسان ليس حراً، ولكن تحكمه قوانين الصدفة التي وضعت كل إنسان من مولده في وضع اجتماعي وظيفي محدد، بما قد يجمله ذلك من تناقض وعدم مساواة.

«ولذلك يرى أنصار الداروينية الاجتماعية أننا

(71) فلسفة الأخلاق لدى نيتشه، إبراهيم يسري، (ص 48).

(72) Evolutionary Naturalism, Michael Ruse. p228

(73) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري، (ص 11).

(67) Evolutionary Naturalism, Michael Ruse p.231

(68) المرجع السابق، (ص 233).

(69) The Study Of Socillogy, Herbert Spencer.p346

(70) المرجع السابق، نفس الصفحة.

2- تشكل العنصرية نسق فكري مفاهيمي في الفكر الغربي موعلة في القدم والمعاصرة، ظهر جلياً في الفلسفة اليونانية والرومانية والفلسفة الحديثة والمعاصرة.

3- اشتدت العنصرية وقوي بأسها في حقبة الفلسفة الحديثة، لكثرة النظريات الفلسفية المتضمنة لأسس العنصرية، وتم استقراؤها في هذه الدراسة لتتنظم بالأسس الفلسفية التالية:

أ- فلسفة الذات والأنا: والتي تضع الذات قبل الموضوع، والأنا قبل العالم، وكل «أنا» هو عدو، يريد أن يكون المستبد بكل الآخرين.

ب- فلسفة القوة: تحدد قيمة الإنسان في قوته وقسوته، ورفض القيم والمبادئ وتعلن أخلاق السادة وهي القوة، وأخلاق العبيد وهي الرحمة والشفقة.

ج- فلسفة الحق الطبيعي: وهي حق الفرد في إشباع أي رغبة يريدها، لامتلاكه «الحقوق الطبيعية» (حق البقاء، حق استخدام أي وسيلة لتحقيق غاياته، حق الاستحواذ).

د- فلسفة الروح: وفيها كفاح الروح عبر التاريخ من أجل امتلاك الوعي بالحرية، حتى وصلت العتبة الأخيرة لتاريخ الروح الأوربية.

هـ- فلسفة البقاء للأصلح: التطور هو العملية التي تخلق القيمة، والحكم على الشيء بكونه خيراً أو شراً، والصراع من أجل البقاء أمر حتمي، فمن كان قابلاً

وتقدس الذات، وتحديد قيمة الإنسان في قوته وقسوته، وإشباعه أي رغبة يريدها، لتظهر فلسفة البقاء للأصلح وتحدد أن التطور هو العملية التي تخلق القيمة، وهو من وضع كل إنسان منذ مولده في وضع اجتماعي وظيفي محدد، بما قد يجمعه من تناقض وعدم مساواة، لنصل إلى أعلى مراتب الإلحاد بإعلان نيتشه موت الإله ليحل محله الإنسان الأعلى الذي يؤمن بضرورة هدم الأخلاق السائدة؛ لأنها تقوم على فكرة الحقوق المتساوية بين البشر، وإقامة أخلاق الإنسان الأعلى الذي يجب أن يتخلص من الآخرين بلا رحمة أو شفقة، إنها الحرب مع الآخر للتخلص من الآخر الضعيف، بموت إلهه الذي ينصره - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -.

الخاتمة

وفيها أهم النتائج التي انتهى إليها البحث، والتوصيات.

النتائج:

1- الإيمان بوجود تمايز بين الأجناس على أساس مادي «بيولوجي - وراثي - بيئي»، والانتصار للجنس الذي ينتمي إليه الفرد أو المجتمع باعتباره جنساً متفوقاً، تمنح له حقوق ومزايا ومكانة لا تمنح للأجناس الأخرى، نظرية فكرية عانت منها البشرية واصطلح على تسميتها بالعنصرية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية:

أبيقور الرسائل والحكم. سعيد، جلال الدين، ط1، القاهرة: الدار العربية للكتاب، 1995م.

إرادة القوة. نيتشه، فريدريك، ترجمة: محمد الناجي، ط1، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2011م.

أساطير بيضاء كتابة التاريخ والغرب. يانغ، روبرت، ترجمة: أحمد محمود، ط1، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003م.

أفول الأصنام. نيتشه، فريدريك، ترجمة: حسان بورقبة، ط1، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 1996م.

الأمير. مكيا فيلي، نيقولو، ترجمة: خيرى حماد، ط12، مصر: دار الآفاق الجديدة، 1405هـ.

الإنثربولوجيا والاستعمار. لكلرك، جيرار، ترجمة: جورج كتورة، ط2، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1411هـ.

تاج العروس. الزبيدي، محمد مرتضى، ط2، بنغازي: دار ليبيا للنشر والتوزيع، 1966م.

تاريخ العالم. هامرتن، السيرجون، ترجمة: إدارة الترجمة بوزارة المعارف، د.ط، مصر: مكتبة النهضة المصرية، د.ت.

تاريخ الفلسفة الغربية. راسل، برتراند، ترجمة: زكي نجيب محمود، ط1، مصر: مكتبة الاعتماد، د.ت.

الجمهورية. أفلاطون، ارستو كليس، ترجمة: فؤاد زكريا، ط1، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 1974م.

روح القوانين. مونتسكيو، شارل، تحقيق: عادل زعيتر، ط2، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1999م.

السياسة. أرسطو طاليس، ترجمة: أحمد لطفي السيد، ط2، الرياض: منشورات الفاخرية، 1947م.

للحياة فليعيش، وإلا فليمت، وسيكون ذلك هو الأفضل، والتطور هو من وضع كل إنسان منذ مولده في وضع اجتماعي وظيفي محدد، بما قد يحمله من تناقض وعدم مساواة.

و- فلسفة الإنسان الأعلى موت الإله ليحل محله الإنسان الأعلى الذي يؤمن بضرورة هدم الأخلاق السائدة؛ لأنها تقوم على فكرة الحقوق المتساوية بين البشر، وإقامة أخلاق الإنسان الأعلى الذي يجب أن يتخلص من الآخرين بلا رحمة أو شفقة، إنها الحرب مع الآخر للتخلص من الآخر الضعيف.

4- الأنا المستبد بكل الآخرين، وفرض أخلاق السادة بالقوة، وبلوغ الروح الأوربية عتبة الحضارة، لأنها الأصلح للبقاء، وبالتالي هي الأعلى، بكل هذه الأسس تشكلت العنصرية الغربية.

5- الأسس الفلسفية التي شكلت العنصرية الغربية تضمنت الإلحاد بإعلانها تقديس الذات ابتداء، لتصل في النهاية إلى إعلان موت الإله، واستعباد الآخر.

التوصيات:

هناك توصيتان رئيسيتان لهذا البحث هما:

- المقارنة بين المذهب العقلي والتجريبي في تأسيس العنصرية فلسفياً.

- أثر الأسس الفلسفية للعنصرية الغربية في خطاب الكراهية المعاصر.

- صدام الحضارات. هنتنغتون، صموئيل، ترجمة: مالك أبو شهيو، ط1، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر، 1999م.
- طبقة المجتمع الأوربي وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامي. البهي، محمد، د.ط، الإسكندرية: دار الفكر، 1970م.
- عدو المسيح. نيشتة، فريدرك، ترجمة: جورج ديب، ط2، اللاذقية: دار الحوار، 2005م.
- العقل في التاريخ. هيجل، جورج، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، ط1، بيروت: دار التنوير، 1984م.
- العولمة. طلاس، ناهد، ترجمة: هشام جداد، ط1، بيروت: دار طلاس، 1999م.
- فكر هيجل. غارودي، روجيه، ترجمة: إلياس مرقص، ط2، بيروت: دار الحقيقة، 1983م.
- فلسفة الأخلاق لدى نيشتة. يسري، إبراهيم، ط1، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، د.ت.
- الفلسفة الرواقية. أمين، عثمان، ط2، القاهرة: الأهلية للنشر والتوزيع، 2020م.
- فلسفة الروح. ولتر ستيس، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، ط1، بيروت: دار أكتوبر، 1982م.
- الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان. المسيري، عبد الوهاب، ط1، القاهرة: دار الفكر، 2013م.
- قصة الحضارة. ديورات، ول، ترجمة: محمد بدران، د.ط، القاهرة: الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية، 1953م.
- كتابات أساسية. هايدغر، مارتن، ترجمة: إسماعيل المصدق، ط1، القاهرة: دار النهضة، د.ت.
- لسان العرب. ابن منظور، محمد، ط2، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1376هـ.
- ليفياتان. هوبز، توماس، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، ط1،
- القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985م.
- ما وراء الخير والشر، تابشير فلسفة المستقبل. نيشتة، فريدرك، ترجمة: جيزيلا حجار، ط1، بيروت: دار الفارابي، 2003م.
- محاضرات في تاريخ الفلسفة. هيجل، جورج، ترجمة: خليل أحمد خليل، ط1، بيروت: المؤسسة الجامعية، 1986م.
- المعجم الوسيط. مصطفى، إبراهيم، وآخرين، د.ط، القاهرة: مجمع اللغة العربية، د.ت.
- مقال عن المنهج. ديكرات، رينيه، ترجمة: محمود الخضيرى، ط2، القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1968م.
- من هيجل إلى نيشتة. لوفيت، كارل، ترجمة: ميشيل كيلو، ط1، دمشق: وزارة الثقافة، 1988م.
- موسوعة لالاند الفلسفية. لالاند، أندريه، ترجمة: خليل أحمد خليل، ط2، بيروت: دار عويدات، 2001م.
- هكذا تكلم زرادشت. نيشتة، فريدرك، ترجمة: فيليكس فارس، ط1، بيروت: المكتبة الثقافية، 1996م.
- هيجل أو المثالية المطلقة. إبراهيم، زكريا، ط1، القاهرة: مكتبة مصر، 1970م.
- ثانياً: المراجع الأجنبية:
- Evolutionary Naturalism, Ruse, Michael, London: Routledge, 1995.
- The English Works of Hobbs, Molcsworth, William, J. Thomas, Bohn 1839.
- The Study of Sociology, Spencer, Herbert, London: Williams & Norgate, 1874.
